

الدور البيداغوجي في السير الحسن لمشاريع و مخابر البحث

الدكتور كاملي بلحاج
جامعة سيدي بلعباس

واقع البحث:

المتأمل في واقع البحث في الجامعة الجزائرية يشهد اضطرابا وقلقا ولا استقرارا بل يعيش تناقضا وتضاربا، وأحيانا اللاجدوى من البحوث المقدمة. فمنضومتا البحثية في حالة من الركود والتباطؤ، إن لم نقل انقطاعا صريحا عن البحث العلمي في العالم التكنولوجي المتقدم.

لا نقول كما يقول المنشئون: "البحث عندنا مريض وضعيف وهو في مؤخرة الأبحاث الجارية في العالم"، هذا كلام غير صحيح وغير موضوعي أيضا والدليل على ذلك أن كبار العلماء والأساتذة في العالم الغربي (كندا وفرنسا وغيرهما) من الجزائريون درسوا في الجامعات الجزائرية.

وكل ما في الأمر عندنا أننا بحاجة إلى ترشيد وتقويم البحث وتحديد أهدافه ومجالاته والعمل على تسويقه وقطف ثماره ونتائجه بدل تجميعه وتكديسه في مخابر الجامعات ورفوف مكنتاتها.

ومن الظواهر أيضا التي يعاني منها البحث عندنا "اللاتخصص"، فالباحث ينتقل من موضوع إلى آخر، ومن مشروع إلى آخر، بل من تخصص إلى آخر دون حرج أو اكتراث، ويا ليتته ينتهي من مشروع أو موضوع لينتقل إلى آخر، بل قد يترك الموضوع وهو في نصف الطريق

ليغيره بآخر، وهذه مشكلة كبرى لا تؤدي إلى نتيجة ، ولا تصنع الباحث المتخصص، وهي تتم عن غياب في الإستراتيجية التي من أجلها نقوم بالبحث.

وبعد هذه المقدمة في واقع البحث والباحثين في جامعاتنا نطرح السؤال التالي:

**كيف يمكننا الاستفادة من هذه البحوث و المشاريع سواء كانت هذه البحوث
تكنولوجية أم إنسانية واجتماعية؟**

وقد يأتي الدور البيداغوجي في المقدمة، وأقصد بالدور البيداغوجي الطريقة و المنهج والرؤية بل والفلسفة التي تحدد مجالات البحث وطرقه وأهدافه ونتائجه.

البحث عندنا، وبفعل عوامل كثيرة، أصبح يبتعد عن الأكاديمية والتعليمية والروح العلمية والأدبية شيئا فشيئا، وأضحت بحوثنا لا تقدم إضافة ولا تحل مشكلة ولا تبعث الرغبة في جيل المتعلمين وباحثي المستقبل، فهي الاستهلاك اليومي الآني.

إنّ إصلاح البحث وتطويره يتعلق بإصلاح جامعي جديد ورؤية جديدة للتعليم العالي ولدور الجامعة ومهامها الرئيسية و هندستها البيداغوجية المتبعة. وهذا يعني ضرورة إعادة النظر في البرامج والمناهج التعليمية وتطويرها بما يتلاءم وحاجيات المجتمع المتجددة في مختلف المجالات من جهة. ومن جهة ثانية -وهي الأساس في نظرنا- توفير التربية و التكوين من منطلق إستراتيجي، عميق، طويل الأمد يحقق شخصية المواطن الجزائري

وهويته وخصوصياته، كما يحقق إضافة ولبنة للأبحاث العلمية والمعرفة الإنسانية بشكل عام.

إنّ للبيداغوجيا دوراً هاماً في ترشيد البحث وتحقيق أهدافه، إذ لا يمكن تصور بحث أو دراسة أو أي عمل دون منهج وهدف. فالبحث العلمي عندنا بحاجة إلى تقويم وإلى رؤية وتصور واضح منذ البداية، وأنا لا أفصد تصور الباحث فذاك أمر متروك للباحث، وإنما أتمنى أن تكون إستراتيجية عامة للبحث على مستوى الجامعات و المعاهد وهذه الإستراتيجية تبدأ من أعلى مستوى-أي من الدولة-، لا بتوفير المال، ولكن يخلق الإطار العام الذي يحقق المنافسة في مجال البحث والإبداع، وأن يكون تصور شامل ورؤية واضحة مرسومة الأهداف والوسائل والغايات.

ونحن وإلى غاية هذه الساعة لا نعرف المجالات التي يمكن أن نبحت فيها كي نقدم فائدة جديدة لمجتمعنا وباقي المجتمعات الأخرى، فالعديد من الباحثين لا يعرف في أي المجالات أو الموضوعات يبحث، بل لا يحسن اختيار الأرضية الخصبة التي تسمح له باكتشاف الكنوز، فمعظم أبحاثنا لا نقول إلا مكرور، ومخابرننا لا تبحث إلا فيما هو مكس ومتراكم وتجاوزه الزمن. فنحن نستهلك المعرفة والمنتوج الغربي ولا ننتجها، وتلك حال أغلب المجتمعات المتخلفة.

وللإشارة فإنّ الدول المتقدمة تسعى بكل طاقاتها لمنعنا من إنتاج المعرفة (إيران) وعليه فالطريق الوحيد للخروج من هذه الأزمة - وهي أزمة متشعبة تمس مختلف مجالات الحياة العلمية والأدبية والاقتصادية والاجتماعية و السياسية...- هو الاعتناء بالتربية و التكوين في مختلف المجالات وعلى

رأسها البحث العلمي والأدبي ، وحينما نقول التربية و التكوين فهذا يعني أن نوجد باحثاً مُكوّناً ومُكوّناً، باحثاً أميناً متخلّفاً، لا باحثاً سارقاً لمعلومات غيره، عاجزاً عن تكوين جيل من الباحثين يواصلون طريق البحث والاكتشاف من بعده.

هذه الأزمة التي أحاط بها مالك بن نابي -رحمه الله- و عبر عنها بهذا السؤال: لماذا تقدم اليابان وتأخرنا نحن؟، وعبر عنها أيضا شكيب أرسلان بنفس السؤال وهو عنوان كتاب له (لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم)؟.

ومما لا شك فيه أن عملية البحث الجاد ليست سهلة بل هي عملية معقدة تتدرج ضمنها عمليات مختلفة مرتبطة بمنهج البحث غاياته، وهو ما لا تتوافر عليه العديد من بحوثنا. والبحث معرفة وخبرة واسعة في مجال التخصص، كما أنه اكتساب مهارات جديدة عن طريق الفهم وإدراك العلاقات، وهو باختصار إضافة نوعية من شأنها تغيير اتجاهاتنا وأفكارنا بل وسلوكنا نحو الأفضل والأحسن من أجل ذلك كان العلم دوماً أساس التقدم والازدهار.

البحث ليس عملاً ارتجالياً ولكنه يخضع لشروط معينة، وكلما توخي الباحث هذه الشروط كان أقدر على كتابة جيدة وإنتاج معان جديدة. ومن هذه الشروط:

- الرغبة في البحث والتفاعل معه يبدأ البحث - كما يؤكد ذلك علماء النفس - بدافع داخلي يحرك الباحث نحو نشاط معين بإمكانه إشباع الحاجة وكلما كان هذا الدافع قويا كان البحث جاداً وعميقاً أيضاً، ولذا

نرى أن العديد من المكتشفات الهامة في ميدان العلوم والآداب في مختلف الثقافات كانت نتيجة هاجس داخلي يدفع الإنسان نحو المعرفة والاكتشاف كما أن تفاعل الباحث ببحثه يهيئ له سبل الاندماج النفسي والروحي مما يحقق النضج الفكري والفعل الإبداعي وهما سمتان أساسيتان لكل بحث أصيل (Original) يتوخى صاحبه إضافة علمية جادة للمعرفة الإنسانية بشكل عام.

ولا زال العديد من الباحثين يجهلون الكثير مما يجري من بحوث - في مختلف التخصصات- في ميدان اللغات. إن المجامع العربية قد قامت بانجازات عظيمة منذ قيامها، لكنها لم تصل بعد إلى النتائج المرجوة بسبب عدم التزام الباحثين بما تقدمه لهم من نتائج وبالخصوص في مجال توحيد المصطلحات العلمية، وهذا على الرغم من المعاجم المفيدة التي وفرتها لهم هذه المجامع. وقصارى القول في هذه النقطة بالذات لا بد للمجمع العربي الجزائري أن يقوم بدوره على أحسن وجه، ويترك الطابع التقليدي الذي ورثه عن مجامع اللغة العربية ويعمل جاهدا لتطوير البحث العلمي وبخاصة في ميدان التكنولوجيا، وأن يسعى حثيثا لتتبع حركة البحث بتعريب المصطلحات وتوحيدها لجمع جهود باحثينا وتقويمها وتوحيدها.

يمكن حصر النقائص في مجال البحث العلمي في النقاط التالية:

1. اعتبارية البحث عند الكثير من الباحثين وذلك بعدم مراعاة الشروط العلمية والمنهجية أي غياب المبادئ النظرية العلمية والأدبية التي يقوم عليها البحث الجاد.

2. عدم شمولية البحث وافتقاره إلى النظرة العامة الناتجة بدورها عن عدم الرجوع إلى المصادر المتخصصة وبخاصة المخطوطات منها.
3. الاعتماد على البحث الفردي إذ ما زال البحث عندنا يجري على مستوى الأفراد على الرغم من وجود مخابر عامة و مشتركة و على الرغم من انتساب هؤلاء الباحثين إلى هيئات علمية عامة فالأعمال الفردية لا يمكن أن تقدم ما تقدمه المجموعات المنتظمة من الباحثين.

• ما ينبغي أن يتوفر في البحث (أسس البحث ومرتكزاته).

1. المنهجية: وهي أمر ضروري لا يمكن الاستغناء عنه ولا يتم البحث بدونه، وهي تصور دقيق يقودنا شيئاً فشيئاً إلى نتيجة معينة.
2. الموضوعية والوضوح في الطرح.
3. الاستدلال والبرهان.
4. النتائج والأهداف المحققة.

• طرق استثمار البحوث: البحث يستوجب تنشيط وتفعيل المراكز والهيئات التالية:

1. مركز التعاون العلمي: ما بين الجامعات والمعاهد وما بين الجهات الأجنبية.
2. مركز حضانة المنتج العلمي: يختص بتحويل المعرفة إلى منتجات صناعية. تشجيع البحوث القابلة للتصنيع وهي حديثة نجدها في الدول المتقدمة.
3. مركز التوثيق وفكرة الأرشيف.

4. مركز الخدمات المعلوماتية (التنسيق والبرمجة).

وخلاصة القول. إن البحث العلمي في الجزائر بحاجة إلى ترشيد وتنظيم من طرف الباحثين أنفسهم في مختلف مجالات البحث. والوزارة الوصية وفرت كل الشروط المادية والمعنوية والقانونية لتطوير البحث العلمي. والجزائر على الدوام كانت وما تزال في مقدمة البلدان العربية اهتماما بالعلم، وهي كما قال أحد أبنائها الباحثين " الجزائر لم تعرف قرونا مظلمة في تاريخها".